لغة الشعر العربي القديم بين الاقتباس والتوظيف الفني
بحث في شعرية التقمص

The language of ancient Arabic poetry between citation and artistic recruitment

سليم بوزيدي*
sifdawlamoutanabi@gmail.com
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2018/12/08 تاريخ القبول:2020/05/07 تاريخ النشر: 2020/09/14

تمهيد:

كان مجيئ الإسلام إيذانا ببداية عهد جديد، يختلف عن فترة الجاهلية، فقد أحدث تغييرا شمل جميع مناحي الحياة السياسية منها، والدينية والاجتماعية، والثقافية، واللغوية. وقد كان الشعر واحدا من المجالات التي تأثرت بالدين الجديد، فكان للقرآن أثرا واضحا في شعر تلك الفترة من مرحلة صدر الإسلام، والعصر الأموي، وما تلاه من العصور.

ويكاد يُجمع أغلب الدّارسين للأدب العربي، في عصر صدر الإسلام، على الأثر البالغ للقرآن على الأدب وفنونه، يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي موضحا ذلك: "أثّر الإسلام في الحياة الأدبية تأثيرا كبيرا سواء في ألفاظ اللغة أم في أسلوبها، أم في فنون الأدب المختلفة من شعر ونثر وخطابة وكتابة أم في أغراض كل فن منها"[(1)]. وهذا الأثر واضح في كل ما وصل إلينا من تراث شعري ونثري، وما قصائد "حسان بن ثابت"، و"عبد الله بن رواحة" إلا خير دليل على تغير الموضوعات والمضامين، ومسايرتها لمنطق القرآن. وبخاصة إذا علمنا أن هناك سورة سميت بـ: "سورة الشعراء"، وأن القرآن له موقف محدد من الشعر والشعراء، فقد قال الله عز وجل: "والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كلّ وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" «سورة الشعراء، الآية 224-227». ويشرح الدكتور سامي مكي العاني موقف الإسلام من الشعر، فيقول: "إنّ القرآن لم يحارب الشعر لذاته في هذه الأحكام، وإنما حارب المنهج الذي سار عليه الشعر والشعراء، منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها، ومنهج الأحلام المفهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها"[(2)]. وقد اختلف الدّارسون في تأويل وتوضيح موقف الإسلام من الأغراض الشعرية التي عرفها الشعر الجاهلي، وذهبوا في ذلك مذاهب شتّى، لعل أقربها إلى الصواب، قول الدكتور يحي الجبوري، حيث يرى أن نظرة الإسلام إلى الشعر جاءت منسجمة وطبيعة المرحلة التي شهدتها الدعوة الإسلامية، وظروفها، كما ان الدين ذم الشعر والشعراء في الفترة الأولى من الدعوة لأنهم اتهموا الرسول بأنه شاعر، لأنه لو كان شاعرا لصح اتهامهم له. وأما في الفترة الثانية فشجع الإسلام على قول الشعر لأنه سلاح مهم للرد على شعراء الكفار[(3)].

هذا فيما يتعلق بمرحلة ما قبل الفتح التي أدى فيها الشعر دوره في هجاء الأعداء من الكفار، والمشركين، الذين كانوا يستخدمون فن الهجاء للحط من قدر الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويلفت الدكتور أنظار الدارسين إلى مرحلة ما بعد الفتح الإسلامي فيقول: "أما بعد الفتح، وقهر قريش العدد الأول، فيكون الشعر قد أنهى مهمته الحربية وانتهى دوره في الهجاء، فقريش عدو الأمس قد أصبحت بعضا من السلمين، وقد عاد اجترار الشعر الذي تقاذفت به مكة والمدينة خطرا حظره المسلمون لأنه يثير

* المؤلف المرسل

الضغائن والأحقاد"[4]. وعلى أية حال فإن الشعراء ظلّوا ينظمون لشعر، وفي أغلب الأغراض دون تحرّج لأنهم فهموا طبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة.

- **تطور المعاني وتبدلها:**

لاشك أن كل عصر من العصور له معان متداولة بين الناس، ولها ألفاظ تدل عليها، ولما جاء العصر الإسلامي أضاف إلى المعاني الموجودة منذ الجاهلية معان لم تكن متداولة، "فلقد اخترع الإسلام معاني جديدة تناسب ما طرأ على الحياة العربية من تطور وتغيير في حياة الأفراد وفي حياة الجامعة، واختار لتلك المعاني ألفاظا للتعبير عنها، سواء في ديوان العقيدة والعبادة أو في جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية"[5]؛ حيث أضاف الإسلام معان لم تكن موجودة، أو كانت موجودة لكنه غيّر منها، ولم تعد تدل على المعاني القديمة، وبهذا فقد أصبح القرآن مصدرا مهما يستلهم منه الشعراء معانيهم، ويبدعون في اختراع معاني جديدة، ويؤكد هذا الدكتور سامي مكي العاني، بقوله: "تفيض الأشعار –يعني أشعار الإسلاميين- بتلك المعاني الجديدة، ويصدر الشعراء عنها في كثير من آثارهم الشعرية. وتلقانا تلك المعاني في صور مختلفة لدى الشعراء. فبعض المعاني المتداولة بين الناس لم تعد لها تلك المعاني المعروفة بينهم، بل أصبحت تعني أشياء جديدة، أخذها الشعراء عن الإسلام"[6].

فمن المعلوم أن الإسلام شكل ثورة على الاعتقادات والمفاهيم التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي آنذاك، والتي كانت مرتبطة بالعادات والتقاليد، ومستمدة منها، في الغالب. ومن نماذج تطور المعاني، بتأثير من الإسلام (القرآن)، معنى كلمة "الحزم" التي لم تعد تعني ما كانت تعنيه في الجاهلية، فأصبح معناه تقوى الله، يقو الفضل بن العباس[7]:

والحـــــــزم تقـــــــوى الله فاتقـــــــه ترشُـــــــد، ولـــــيس لفـــــاجر حـــــزم

كما تغير معنى السعادة، فلم يعد السعيد من يمتلك مالا، بل من يتقي الله، وقد عبر "الحطيئة" عن هذا المعنى الجديد بقوله[8]:

ولســـــت أرى الســـــعادة جمـــــعُ مـــــال ولكـــــن التقـــــي هـــــو الســـــعيد

وتقـــــوى الله خيـــــر الـــــزاد ذُخـــــرا وعنـــــد الله للأتقـــــى مزيـــــد

ومـــــا لابـــــد أن يـــــأتي قريـــــب ولكـــــن الـــــذي يمضـــــي بعيـــــد

يذهب معنى السعادة إلى أبعد من الدنيا، فالسعيد من ينجيه الله من النار، حيث عبر "فروة بن نوفل" عن هذا المعنى قائلا[9]:

لقـــد علمـــت وخيـــر العلـــم أنفعـــه أنَّ السَّـــعيد الـــذي ينجـــو مـــن النـــار

كما أن الشقاء لا يعني عدم امتلاك المال، يقول "لقيط بن زرارة"[10]:

إن الشـــقي الـــذي فـــي النـــار منزلـــه والفـــوز فـــوز الـــذي ينجـــو مـــن النـــار

وبهذا فإن الإسلام قد غير من المفاهيم الدنيوية، وربطها بالآخرة على نحو واضح، وقد عبر الشعراء عن هذه المفاهيم والمعاني الجديدة، عندما امتلأت قلوبهم وضمائرهم بها، وأدركوا حقيقتها صافية.

والحظ لا يعني مجرد النجاح في الدنيا ونيل المكاسب والمكانة فيها، بل هو تلك المكانة والمنزلة التي ينالها المؤمن عند دخوله الجنة، يقول عمرو القنا العنبري[11]:

لا خيـــر فـــي الـــدنيا لمـــن لـــم يكـــن لـــه مـــن الله فـــي دار القـــرار نصـــيب

كما أ المال ليس هو كل شيء في الدنيا، فإنما هو مجرد ربح زائل، ولكن الرابح الحقيقي هو المؤمن التقي، وقد عبر "تميم بن مقبل" عن هذا المعنى بقوله[12]:

قـــول: تـــربّح يغمـــر المـــال أهلـــه كُبيشـــة، والتّقـــوى إلـــى الله أربـــح

فقد أدرك الشاعر أن الربح الحقيقي ليس في الدنيا وزينتها، بل في الآخرة، ولم تكن هذه المعاني الجديدة موجودة قبل مجيء الإسلام، لأن الناس لم يكونوا يؤمنون بوجود الحياة الآخرة، ولما أنزل الله القرآن أصبح هناك ما يسمى الإيمان باليوم الآخر، وأصبح كل شيء في حياة المسلمين مرتبطا بهذا الإيمان، ومن ثم حصل تغيير كبير شمل معاني الأشياء، الغاية منها، ومن ثم فإن "ذه التفسيرات وتلك المعاني الجديدة التي طرأت على الألفاظ والمصطلحات التي كانت شائعة قبل الإسلام هي حصيلة التغييرات التي أحدثها الإسلام في نظرة الإنسان إلى الكون وإلى الحياة وإلى الأشياء من حوله"[13].

فهناك معان كثيرة تغيرت عندما آمن المسلمون بالنظرة الجديدة للإسلام في كل شؤون الحياة الاجتماعية منها والسياسية والدينية.

- **التطور اللغوي والحضاري:**

إن قضية تطور لغة الشعر القديم في مرحلة صدر الإسلام، من أهم القضايا التي تعرض لها النقاد والدارسون قديما وحدثا، ولعل أول من طرحها من القدماء القاضي الجرجاني في كتابه "الوساطة"، وكان ذلك في معرض حديثه عن ضعف الشعر الإسلامي، يقول الآمري: "فلما ضرب الإسلام بجرانه، اتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام

ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعا وأطفها من القلوب موقعا، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها، كما رأيتهم يختصرون ألفاظ "الطويل". فإنهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لقطة أكثرها بَشِعٌ شَنِعٌ، كالعشنط والعنطند، والجثوب والشوقب والشلهبوالشوذب ... فنبذوا جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل لخفّته على اللسان وقلة بنو السمع عنه"[14].

وهذا النص الذي ورد عن الآمدي يتعلق بأثر تحضر في لغة عر، ويحدد أهم السمات والفوارق اللفظية بين مرحلتين من مراحل تطور الشعر لعربي في صدر الإسلام؛ حيث انتقل من الجاهلية إلى الإسلام، وهذه النقلة لحضارية والدينية تركت أثرها في القصيدة العربية؛ على مستوى الألفاظ.

ويقدم الآمدي مثالا على هذا التطور اللغوي في ألفاظ الشعر الإسلامي بلفظ "الطويل"، التي هي من المشترك اللفظي لمجموعة من الألفاظ: (العشنط، العنطنط ...الخ). ويعلق عليها بأنها بشعة شنيعة يكرهها السمع ... ويرى أن هناك ألفاظ شريفة، هي محل اختيار، واستخدام شعري.

والسبب يوضحه "القاضي الجرجاني"، بعد حديثه عن تهذيب وانتقاء ألفاظ الشعر الإسلامي لتلائم الطبع والذوق الحضاري، يقول: "فانتقلت العادة وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، واحتذوا بشعرهم هذا المثال، وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين، فيظن ضعفا، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا، وصار ما تخيلته ضعفا رشاقة ولطفا"[15]؛ حيث تغير الذوق الشعري، وتغير معه الحس النقدي أيضا، وصار لزاما على الشاعر أن ينتقل بلغته من المعجم القديم، الذي يحتفل بالغريب ويقدسه، إلى معجم جديد ليس فيه غرابة، وفيه نزوع نحو السهولة والسلاسة في التعبير. وكان هذا من متطلبات التجديد الشعري في تلك الفترة.

غير أن هناك من الشعراء من يستهويه مذهب القدماء، في الإغراب اللفظي ظنا منه أن الشعر القوي والجزل لا يتمّ إلا به. ويعلق "القاضي الجرجاني" على هذا الاتجاه الشعري بقوله: "فإن رام أحدهم الاغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء (لعراء الجاهليين) لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد التكلف، وأتم تصنع"[16]؛ فمع تغير المذهب الفني في الشعر، تغيرت النظرة النقدية أيضا؛ حيث أصبح مذهب القدماء رمزا لمدرسة التصنع والتكلف الذي يفسد الشعر، ويذهب بجماله الأسلوبي. ويعلق "القاضي الجرجاني" على هذا المذهب بقوله: "ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق، وأخلاق الديباجة"[17].

- **طبيعة شعر البادية:**

درج الباحثون في دراستهم لأثر الإسلام في الشعر العربي على عدم تقسيمه التقسيم الصحيح، فخلطوا بين من دخل في الإسلام مبكرا، وتأثر بتعاليمه في شعره، وبي من دخل في الإسلام بعد الفتح، وعلى المزج بين بيئات الشعراء، دون تحديد. وفي هذا يقول الدكتور يحي الجبوري: "والدّقة العلمية تقتضي، بأن نلتمس آثار

الإسلام في شعر الشعراء الذين سكنوا البادية، أو وفدوا على حاضرة المسلمين، وشعر البادية في الإسلام امتداد للشعر الجاهلي، أو هو بقية الجاهلية في الإسلام"[18]. وكان هذا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، على أرجح الأقوال. وأثناء انشغاله بحري المشركين واليهود، حيث تأثر الشعر في تلك المرحلة، وقل عدد الشعراء.

ويعلل الدكتور يحي الجبوري، بقوله: "والظروف العامة التي أحاطت بهذا الشعر من جهة، وانشغال المسلمين في حري قريش واليهود من جهة أخرى. جعلت الشعر في البادية –في فترة متأخرة، فأكثر الشعراء المتأثرين بالإسلام ظهروا ي الحياة الاسلامية أثناء الفتح وبعده، خلا بجيرًا الذي كان إسلامه في حدود السنة السابعة للهجرة"[19]. ولذلك نجد أسماء قلة من الشعراء الذين دخلوا الإسلام مبكرا، وحسن إسلامهم، وقد تناقلت كتب الأدب والتراجم بعض أخبارهم وأشعارهم، ونذكر منهم:

✓ **العباس بن مرداس:**

هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، المكنّى بأبي الفضل، أو أبي الهيثم، فارس شاعر شديد العارضة والبيان، سيد في قومه[20]. ويذكر الأصفهاني أيضا أن: "العباس بن مرداس شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، ووفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم".

ويذكر البغدادي أن العباس بن مرداس، هو ابن الخنساء الشاعرة[21]. يروي الأصفهاني قصة إسلام "العباس"، أنه قال: "كان لأبي صنم اسمه ضمار، فلما حضره الموت أوصاني به، وبعبادته، والقيام عليه، فعمدت إلى ذلك الصنم فجعلته في بيت، وجعلت آتيه في يوم وليلة مرّة، فلما ظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعت صوتا في جوف الليل راعني، فوثبت إلى ضمار، فإذا صوت في جوفه يقول:

قـــل للقبائـــل مـــن ســـليم كلهـــا هلـــك الأنـــيس وعـــاش أهـــل المســـجد

إن الـــــذي ورث النبـــــوة والهـــــدى بعـــد ابـــن مـــريم مـــن قـــريش مهتـــدي

أودى الضـــــمار وكـــــان يعبـــــد مـــــرّة قبـــــل الكتـــــاب إلـــــى النبـــــي محمـــــد

قال فكتمت الناس ذلك، فلم أحدّث به أحدا، حتى انقضت غزوة الأحزاب، فبينما أنا في إبلي في طرف العقيق وأنا نائم، إذ سمعت صوتا شديدا، فرفعت رأسي فإذا أنا برجل على حيالي بعمامة يقول: إنّ النور الذي وقع بين الاثنين وليلة الثلاثاء، مع صاحب الناقة العضباء، في ديار بني أخي العنقاء، فأجابه طائف عن شماله لا أبصره فقال: بشّر الجن وأجناسها، أنْ وضعت المطي أحلاسها، وكفت السماء أحراسها، وأن يُغِصَّ السوق أنفاسها. قال: فوثبت مذعورا وعرفت أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصطفى، فركبت فرسي وسرت حتى انتهيت إليه فبايعته وأسلمت"[22].

وبعد أن أسلهم العباس بن مرداس، وفهم تعاليم الدين الجديد، عبر عن شركه وضلاله، فقال[23]:

لعمـــري إنّـــي يـــوم أجعـــل جاهـــدا ضـــمارًا لـــرب العـــالمين مشـــاركا

وتركـــي رســـول الله والأوس حولـــه أولئـــك أنصـــارٌ لـــه مـــا أولئـــك

كتـــارك ســـهل الأرض والحـــزن يبتغـــي ليســـلك فـــي غيـــب الأمـــور المســـالكا

فآمنـــت بـــالله الـــذي أنـــا عبـــده وخالفـــت مـــن أمســـي يريـــد المحالكـــا

ووجهـــت وجهـــي نحـــو مكـــة قاصـــدا وتابعـــت بـــين الأخشـــبين المُباركـــا

نبـــيٌّ أتانـــا بعـــد عيســـى بنـــاطق مـــن الحـــق فيـــه الفصـــل منـــه كـــذلكا

أمينـــا علـــى الفرقـــان أوّل شـــافع وآخـــر مبعـــوث يجيـــب الملائكـــا

تلافـــا عـــرا الإســـلام بعـــد انفصـــامها فأحكمهـــا حتـــى أقـــام المناســـكا

رأيتـــك يـــا خيـــر البريـــة كلهـــا توســـطت فـــي القربـــى مـــن المجـــد مالكـــا

ســـبقتهم بالمجـــد والجـــود والعـــلا وبالغايـــة القصـــوى تفـــوت الســـنابكا

فأنـــت المصـــفّى مـــن قـــريش إذ سَـــمَت غَلَاصِـــمُهَا تبغـــي القـــروم الفواركـــا

- **مرحلة التحول من الجاهلية إلى الإسلام:**

ويرى الدكتور محمد أبو ربيع أن نظم الشعر في صدر الإسلام لا يختلف كثيرا عن مرحلة الجاهلية، يقول: "وقد بقي بعض الشعراء ينظم الشعر ويعيش الحياة كما كان يفعل قبل الإسلام، فالحطيئة، وكعل بن زهير، وإن تركت الدعوة الجديدة والمجتمع الجديد بها بعض التأثير"[24]؛ فالدارس لشعر كعب بن زهير، يجد أن كان يتفاعل مع الأحداث والوقائع، ومثله الشاعر كعب بن مالك الأنصاري، حيث كان شعرهم يمثل مرحلة انتقالية للشعر من فترة الجاهلية، بما سادها من ظلامية، إلى مرحلة الإسلام، بما تميزت به من تغير في الحياة الاجتماعية والدينية للمجتمع العربي. ويذهب الدكتور محمد أبو ربيع إلى القول بهذا الرأي، قائلا: "أما

كعب بن مالك الأنصاري، فقد كان من الشعراء القلائل الذين شاركوا في صنع تلك الأحداث، والتعبير عنها، وممن حملوا ذلك العبء الفني وحاولوا أن ينهضوا به، فبدت في شعره آثار اللقاء بين القديم والجديد"[25].

ومن المعلوم أن هؤلاء الشعراء –الذين ذكرناهم وغيرهم- انوا من زمرة الشعراء المخضرمين، فهم متشبعون بالقيم الفنية، فيما يخص الشعر، ومن يتصل به من الأغراض، وكذا بالقيم الاجتماعية السائدة. وليس من السهولة بمكان عليهم أن يتخلصوا من هذا الإرث الفكري والأدبي الثقيل. لكن الإسلام حتم عليهم أن ينفضوا أيديهم من كثير مما علق بها ذلك الإرث، مما اضطرهم إلى تغيير فني ينتقلون به من الجاهلية إلى الإسلام، كان من أهم ميزاته أنه سريع، يقول الدكتور عبد القادر القط في وصف هذه المرحلة: "والحق أن مرحلة الانتقال تلك كانت بالغة القصر إذا ما قيست إلى التحول الهائل الذي طرأ على الحياة العربية بعد الفتوح الإسلامية"[26]. إذ ليس من السهل تغيير الدين على الشاعر العربي، الذي عاش زمنا طويلا من عمره تحت وطأة الفكر القبلي والعصبية المرتبطة بتلك الحياة، فكان عليه أن يقتنع –أولا- بتعاليم الإسلام، ثم يوجه لسانه وبيانه للدفاع عنه بعد ذلك، "فالشعراء منذ السنوات الاولى للإسلام قد بدأوا يتأثرون تأثرا واضحا بالمعاني الدينية الجديدة، وبالأسلوب القرآني مما يؤكد أن مواجهة الشاعر المخضرم للمجتمع الجديد كانت مواجهة سريعة فرضت عليه إما التكيف السريع "كحسان بن ثابت" أو الصمت مثل "لبيد"، أو المضي على طريق الشعر الجاهلي مثل "الحطيئة" "[27].

ولعل أوضح مثال عن شعر تلك المرحلة الانتقالية قصيدة: "بانت سعاد"، للشاعر كعب بن زهير، في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يقول[28]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلّا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذي ظلم إذ بتسمت كأنه منهل بالراح معلول

شجت بذي شَبِمٍ من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

تجلو الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية بيض يعاليل

يا ويحها خلةٌ لو أنها صدقت ما وعدت أو لو أن النُّصح مقبول

لكنها خلة قد سيط من دمعها فجع وولع وإخلاف وتبديل

فمـــا تـــدوم علـــى حـــال تكـــون بهـــا كمـــا تكـــوَّن فـــي أثوابهـــا الغـــول

ومـــا تمســـك بالوصـــل الـــذي زعمـــت إلا كمـــا تمســـك المـــاء الغرابيـــل

كانـــت مواعيـــد عرقـــوب لهـــا مـــثلا ومـــا مواعيـــدها إلا الأباطيـــل

أرجـــو وآمـــل أن يعجلـــن فـــي أبـــد ومـــا لهـــن طـــوال الـــدّهر تعجيـــل

فـــلا يغرنّـــك مـــا منّـــت ومـــا وعـــدت غـــنَّ الأمـــاني والأحـــلام تضـــليل

إن المتأمل في هذه المقدمة يجد أنها لا تزال تحتفظ بالنفس الشعري التقليدي، الذي ألفناه في القصيدة الجاهلية، غير أن الشاعر قد انتقل من ذلك الزمن إلى زمن إسلامي بسط فيه القرآن سلطانه على قلب الشاعر، فأسلم، غير أنه لم يغير من هذا الافتتاح.

ولهذا ذهب الدكتور عبد العزيز عتيق بعد تأمله في شعر صدر الإسلام إلى القول بأن "الشعر على عهد رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قل كمّا وكيفا وموضوعا، وأنه ظلّ جاهليا في صورته وأسلوبه وروحه، وأنه لم يتطور على نهجه القديم إلا قليلا، وإذا كان قد تأثر بالإسلام فهو تأثر في المعاني والألفاظ، من حيث التطرق إلى بعض المعاني الدينية"[29]. وهذا ماثل في قصيدة كعب حيث بدأها بمقدمة غزلية، على عادة الجاهلية في افتتاح قصائدهم. وهي وإن كانت كذلك، فإن الدكتور عبد القادر القط يرى أنها: "تعبير ذاتي عن عواطف الشاعر مهما يكن وضعها التقليدي في القصيدة"[30]؛ فلها ارتباط بذات الشاعر التي تعبر عن لوعة الفراق، أي عن تجربة، وليس تقليدا فنيا جامدا.

✓ **لبيد بن ربيعة:**

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، وكان يقال لأبيه "ربيع المقترين" لسخائه. قتلته بنو سعد في حرب بينهم وبين قومه. ويكنى أبا عقيل. وكان من شعراء الجاهلية وفرسانهم[31]. وهو من الشعراء المخضرمين، "أدرك لبيد الإسلام، وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني كلاب، فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، ثم قدم لبيد الكوفة وبنوه، فرجع بنوه إلى البادية، فأقام لبيد إلى أن مات بها فدفن في صحراء بني جعفر بن كلاب"[32].

وفيما يخص شعر لبيد في صدر الإسلام، فقد روي الأصفهاني أن لبيدا توقف عن قول الشعر، وانصرف عنه إلى تعلم القرآن؛ جاء في كتاب الأغاني أن عمر بن الخطاب كتب رسالة إلى "المغيرة بن شعبة"، والي الكوفة، وطلب منه أن يستنشد الشعراء ما قالوا في الإسلام من أشعار... فأرسل إلى لبيد وطلب منه أن

ينشد، فاعتذر منه، وكتب سورة البقرة وأتاه بها، وقال أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر، فكتب بذلك المغيرة إلى عمر، فأعطاه عمر زيادة في عطائه[33]. ويفسر الدكتور يحي الجبوري تصرف لبيد بن ربيعة مع والي عمر بن الخطاب على العراق، المغيرة بن شعبة، فيقول: "ويبدو أن لبيدا عرف السر في سؤال "عمر"، في الاطمئنان على إيمان الشعراء، وتمسكهم بعرى الدين، فأجابه بأسلوب فيه كثير من التأدب والذكاء والفطنة"[34].

ويذهب بعض الرواة إلى أن لبيد لم يقل في الإسلام غير بيت شعر واحد، وهو[35]:

الحمـــــد لله إذ لـــــم يـــــأتني أجلـــــي حتـــى لبســـت مـــن الإســـلام ســـربالا

وهذا البيت تناقله غير واحد من الرواة، لكنه لا يقوم كدليل على صحة هذا الادعاء؛ فابن قتيبة نفسه يروي في "الشعر والشعراء" بيتا آخر هو[36]:

مـــا عاتـــب المـــرء الكـــريم كنفســـه والمـــرء يصـــلحه الجلـــيس الصـــالح

وبناء على نماذج شعرية متعددة يرفض الدكتور يحي الجبوري هذا الادعاء، قائلا: "إن دعوى هجر الشعر مرفوضة، لا تقوم أمام تركة لبيد من الشعر الذي قاله في عمره حين بلغ سبعا وسبعين، أو قاله في التسعين، أو قاله في المائة، وكذلك الوصية المؤثرة التي تركها عند وفاته لابنتيه ولابن أخيه، في كيفية أداء حقّه حين يواري التراب"[37]. فالقارئ لديوان لبيد الشعري يجد نماذج شعرية كثيرة، ذات جودة فنية عالية، فمن ذلك قوله[38]:

إن تقـــــوى ربِّنـــــا خيـــــر نفـــــل وبـــــإذن الله ريثـــــي وعجـــــل

أحمـــــد الله فـــــلا نـــــد لـــــه بيديـــــه الخيـــــر ومـــــا شـــــاء فعـــــل

مـــن هـــداه ســـبل الخيـــر اهتـــدى نـــاعم البـــال ومـــن شـــاء أضـــل

وأثر الآيات القرآنية بارز في هذه الأبيات؛ فالأول مأخوذ من قوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (سورة الشورى، الآية 11)، والبيت الثاني هو قول الله: "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إنّ الله كان عليما حكيما" (سورة الإنسان، الآية 30). والبيت الثالث من سورة الأعراف في قوله تعالى: "من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون" (سورة الأعراف الآية 178). إن المعاني الواردة في الأبيات لم تكن مطروقة في الجاهلية، فهي معان عقائدية، قرأها لبيد، وتأثر بها، ثم أعاد صياغتها بأسلوبه الشعري البديع.

✓ **النابغة الجعدي:**

اختلف العلماء في اسم هذا الشاعر، "فقيل: هو قيس بن عبد الله بن عُدس بن ربيعة بن جعدة ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وقال ابن قتيبة: هو عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة"[39]. وهو واحد من الشعراء المشهورين في فترة صدر الإسلام. من أشهر قصائده التي يبرز فيها تأثره بالقرآن ميميته المشهورة التي يقول فيها[40]:

1- الحَمـــــدُ لِلَـــــهِ لاَ شَـــــرِيكَ لَـــــهُ مَـــــن لَـــــم يَقُلهـــــا فَنَفسَـــــهُ ظَلَمـــــا

2- المُـــــولِجِ الليـــــلَ فـــــي النهـــــارِ وَفِـــي الليـــلِ نَهـــاراً يُفـــرِّجُ الظُّلَمـــا

3- الخـــافِضِ الرافِـــعِ الســـماء عَلـــى الأَرضِ وَلَـــم يَـــبنِ تَحتَهـــا دِعَمـــا

4- الخـــالِقِ البـــارِئِ المُصَـــوِّرِ فـــي الـــ أَرحـــامِ مـــاءً حَتّـــى يَصِـــيرَ دَمـــا

5- مِـــن نُطفَـــةٍ قَـــدَّها مُقـــدّرُها يَخلُـــقُ مِنهـــا الأَبشـــارَ وَالنَسَـــما

6- ثُـــمَّ عِظامـــاً أَقَامَهـــا عَصَـــبٌ ثُمَّـــتَ لَحمـــاً كَســـاهُ فَالتأَمـــا

7- ثُـــمَّ كَســـا الـــرِيشَ والعَقـــائِقَ أَبْـــ شـــاراً وَجِلـــداً تَخالُـــهُ أَدَمـــا

8- وَالصـــوتَ وَاللَـــونَ وَالمَعـــايِشَ وَالـــ أَخـــلاَقَ شَـــتّى وَفَـــرَّقَ الكَلِمـــا

9- ثُمَّـــتَ لاَ بُـــدَّ أَن سَـــيَجمَعُكُم وَاللَـــهِ جَهـــراً شَـــهادَةً قَسَـــما

10- فَـــائتَمِرُوا الآنَ مـــا بَـــدا لَكُـــمُ وَاِعتَصِـــمُوا إِن وَجَـــدتُمُ عِصَـــما

11- فِـــي هـــذِهِ الأَرضِ وَالسَـــماءِ وَلا عِصـــمَةً مِنـــهُ إِلاَّ لِمَـــن رَحِمـــا

12- يـــا أَيُّهـــا النـــاسُ هَـــل تَـــرَونَ إِلـــى فَـــارِسَ بـــادَت وَخَـــدُّهَا رَغِمـــا

13- أَمسُـــوا عَبِيـــداً يَرعَـــونَ شـــاءَكُمُ كَأَنَّمـــا كـــانَ مُلكهُـــم حُلُمـــا

14- مِـــن سَـــبَأَ الحاضِـــرينَ مـــآرِبُ إِذ يَبنُـــونَ مِـــن دُونِ سَـــيلِهِ العَرِمـــا

15- فَمُزّقُـــوا فِـــي الـــبِلادِ واعتَرَفُـــوا الهـــونَ وَذاقُـــوا البَأســـاءَ والعَـــدَما

16- وَبُـــدِّلُوا السِـــدرَ وَالأَراكَ بِـــهِ الخمـــطَ وَأَضـــحى البُنيـــانُ مُنهَـــدِما

17- يـــا مالِـــكَ الأَرضِ وَالسَـــماءِ ومـــن يَفـــرَق مِـــنَ اللَـــهِ لا يَخَـــف أَثَمـــا

18- إِنّـــي اِمـــرُؤٌ قَـــد ظَلَمـــتُ نَفســـي وَإِلاَّ تَعـــفُ عَنّـــي أُغـــلا دَمـــاً كَثِمـــا

19- أُطـــرَحُ بِالكَـــافِرِينَ فـــي الـــدَرَكِ ال أَســـفَلِ يَـــا رِبِّ أصـــطَلي الصَـــرِما

20- يَرفَـــعُ بالقـــارِ والحَدِيـــدِ مِـــنَ ال جَـــوزِ طِـــوالاً جُـــذُوعُها عُمُمـــا

21- نُـــودِيَ قُـــم وَاركَـــبَن بأَهلِـــكَ إنَّ اللَـــهِ مُـــوفٍ لِلنـــاسِ مـــا زَعَمـــا

لمتأمل في هذه القصيدة يجد ان النابغة يقتبس موضوعاته، ومادته اللغوية (المعجم اللغوي) من القرآن الكريم، على نحو يبرز تأثره الشديد بالعقيدة الإسلامية، وما جاء فيها؛ حيث يثني على الله، ويعترف بوحدانيته، وينفي عنه الشريك، فهو يستهل خطابه ب: ": "الحمد لله"، وهي من سورة الفاتحة، ومن غيرها من آيات الذكر الحكيم، ثم يأخذ قول الله: "إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون". (سورة: يونس، الآية: 44). ويتحدث في البيت الثاني عن نظام الكون المنبئ عن قدرة الله، وعظيم إبداعه، فيستلهم قول الله: "قل اللهم مالك الملك ... بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل" (سورة: الرعد، الآية 02).

ثم انتقل من معجزات الله في الكون إلى الحديث عن معجزاته في خلق الإنسان، وهي من قول الله عز وجل: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" (سورة المؤمنون، الآية: 12-13-14). وبعدها يخرج إلى موضوع البعث والنشور، في البيت التاسع، ثم يضيف إليه "القصص القرآني" فيروي عما أصاب الأمم السابقة من عقاب إلاهي، وكيف كان هلاكهم، في البيت الرابع عشر، حيث يقتبس من قوله تعالى: "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنّتان عن يمين وشمال ... فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنبتين ذاوتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل لك جزيناهم بما كفروا ... وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق" (سورة سبأ، الآية 15-19).

وعلى هذا النحو كان تأثر النابغة الجعدي بالقرآن الكريم في ألفاظه، وأساليبه، وموضوعاته، فهو يستوحي كل ذلك من المعجم القرآني. ولم يكن الشاعر الجاهلي يتطرق إلى هذه الموضوعات على هذا النحو، إلا بعد دخوله في الإسلام واطلاعه على آيات القرآن، ومعجزات الله فيه. وعلى أخبار من مضى من الأمم الغابرة.

✓ **خصائص شعر المخضرمين:**

تميّز الشعر في صدر الإسلام بمجموعة من المسمات والخصائص الفنية، يمكن أن نوجزها فيما يأتي:

- أنها كانت تعبيرا جماليا مؤثرا، عن مواقف وتجارب وتصورات الشعراء اتجاه الحياة والكون، فقد حاولوا التوفيق بين جمالية النص وأثره.

- التزام الشعراء بقضايا العقيدة، وبالدّفاع عن الدين، والسعي لإصلاح المجتمع، ونشر قيم الخير والفضيلة.

- تميز الشعر في هذه المرحلة بالواقعية، حث كان الشعراء يعيشون بين الناس وينقلون مشاعرهم وأحاسيسهم، ويعبّرون بصدق عما يعتمل في صدورهم.

هذا من حيث الموضوعات والمضامين بصفة عامة، أما من حيث الميزات الفنية، فتميز بما يلي:

- محافظة الشعر في صدر الإسلام على نمطه الجاهلي وأسلوب القدماء؛ من إيجاز العبارة، وقوة في التعبير، وجزالة في اللفظ وتعدد الموضوعات، وبراعة الأوصاف، هذا فيما يخص الشعر في مكة، وأعني البدوي. وأما في المدينة ففيه نوع من التطور والتجديد من حيث المعاني والأساليب؛ فألفاظه عذبة، سلسة، رقيقة، واضحة المعاني، وبخاصة في القصائد ذات الصلة الوثيقة بالموضوعات الإسلامية.

- وقد بقيت أغراض الشعر الإسلامي، من مدح وهجاء وفخر ورثاء سائرة على منهج الشعر الجاهلي، وخير دليل قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، وهمزة حسان بن ثابت: (عفت ذات الأصابع فالجواء).

ويمكن تعليل هذا البقاء الفني المحافظ، يكون عصر صدر الإسلام عصر انتقال لا تبرز فيه الظواهر الفنية الجديدة إلا بعد استقرار الفكر الجديد، بالإضافة إلى كون معظم شعراء صدر الإسلام مخضرمين نضجوا فنيا في الجاهلية؛ فحسان ولبيد، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير والنابغة الجعدي والحطيئة، كلهم مخضرمون. ويبدو أن سطوة الموروث الشعري (الفني) كبيرة على نفوسهم وعقلياتهم، فلم يكن من اليسير عليهم أن يتخلصوا من الطرائق الفنية التقليدية التي ألفوها في نظم الشعر. ولذلك اقتصر أثر القرآن في شعرهم على استعمال ألفاظ وتعابير دينية، أو ذكر أحداث ومناسبات إسلامية، أو تضمين آيات قرآنية. وهذا تقليد وليس ابتكارا، لما تكون القصيدة كلها في معالجة المفاهيم والمعاني الدينية. وبناء على كل ما سبق فقد تميز شعر المخضرمين بتمثيل العصر، وتأريخ الأحداث، وبخاصة ما تعلق بالحرب الشعرية والحرب المسلحة

التي دارت بين المسلمين والمشركين، وفي هذه الحروب ظهر فن النقائض وازدهر على يد شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم.

❖ أثر القرآن في الشعر الأموي:

يعد شعراء صدر الإسلام أقرب شعراء الأدب القديم إلى القرآن، فقد عاصر الكثير منهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهدوا نزول الوحي، وقد بدا هذا بشكل جلي في أشعارهم. أما شعراء العصر الأموي، فهم أقل تأثرا بالقرآن الكريم. ويفسر الدكتور سامي العاني هذا بقوة العقيدة عند شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم، وضعفها عند من جاء بعدهم، يقول: "من الطبيعي ألا يكون الشعراء في صدر الإسلام والعصر الأموي على درجة واحدة من الالتصاق بعقيدتهم الإسلامية وانصهار وجدانهم بها"[41].

وما دام الأمر كذلك فإن التجارب الشعرية ستكون مختلفة، بناء على مدى صدقها في التعبير، "ومن هنا اختلفت تجاربهم الشعرية في حدة الانفعال، وقدرة على التعبير عن ذلك الانفعال فتفاوتت أشعارهم"[42].

1. **الفرزدق:**

يظهر أثر القرآن الكريم في هجائه لإبليس، في قصيدته الميمية المشهورة، حيث يستفيد من القصص القرآني المتعلق بعدو الله وعدو البشر إبليس، حيث يقول[43]:

1- يَظَـــلُّ يَمَنّيَنـــي علـــى الرّحْـــلِ وَارِكـــاً ... يَكُـــــونُ ورَائـــــي مَـــــرّةً وَأَمَـــــامي

2- يُبَشِّـــــرُني أنْ لَـــــنْ أمُـــــوتَ، وَأنّـــــهُ ... سَـــــيُخْلِدُني فـــــي جَنّـــــةٍ وَسَـــــلامِ

3- فَقُلْـــتُ لَـــهُ: هَـــلاّ أُخَيَّـــكَ أخرَجَـــتْ؟ ... يَمِينُـــكَ مِـــنْ خُضـــرِ البُحُـــورِ طَـــوَامِ

4- رَمَيْـــتَ بِـــهِ فـــي الـــيَمّ لَمّـــا رَأيْتَـــهُ ... كفرقـــــةِ طَـــــوْدَيْ يَـــــذْبُلٍ وَشَـــــمَامِ

5- فَلَمّـــا تَلاقَـــى فَوْقَـــهُ المَـــوْجُ دامِيـــاً ... نكصـــــت، وَلَـــــمْ تَحْتَـــــلْ لَـــــهُ بمَـــــرَامِ

6- تَـــأتِ أهـــلَ الحِجـــرِ والحِجـــرُ أهلُـــهُ ... بـــــأنْعَمِ عَـــــيْشٍ فـــــي بُيُـــــوتِ رُخَـــــامِ

7- لْـــتَ اعْقِـــرُوا هـــذي اللَّقـــوحَ فإنّهـــا ... لكـــــمْ، أوْ تُنيخُوهـــــا، لَقُـــــوحُ غَـــــرَامِ

8- مّـــــا أنَاخُوهـــــا تَبَـــــرّأتَ مِـــــنْهُمُ ... وكُنْـــــتَ نَكُوصـــــاً عَنْـــــدَ كـــــلّ ذِمـــــامِ

9- دَم قَـــدْ أخرَجْتَـــهُ، وَهـــوَ ســـاكِنٌ وزوجَتَـــهُ، مِـــنْ خَيـــرِ دارِ مُقَـــامِ

ففي هذه القصيدة يقتبس الفرزدق من ثلاث قصص قرآنية:

أ- قصة فرعون: [3- 5]، حينما أغرقه الله في البحر الأحمر مع جنوده، وهي قصص قرآني فصّله الله في القرآن، وختمها بقوله تعالى: "فأخذناه وجنوده فنبذناهما في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين" (سورة القصص، الآية: 40).

ب- قصة ثمود والناقة: [6-8]، وفيها يقتبس من قصص الغابرين، قوم ثمود الذين ظلموا. قال تعالى: "وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود" (سورة هود، الآية 67).

وفي البيت الأخير يشير إلى قصة إخراج آدم وحواء من الجنة، التي ختمها الله بقوله: "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه" سورة البقرة، الآية 40). فالفرزدق يعود إلى القصص القرآني، ويستفيد منه في ذكر ما قام به إبليس اللعين في غابر الأزمان، من إغواء لبني آدم، ويفضح كذبه وخذلانه، وعدم وفائع بوعوده. وهكذا نجد أن القرآن يلقي بظلاله الأسلوبية، والموضوعاتية، على الشعر الأموي.

وينتفع الفرزدق بقصة النبي يونس عليه السلام، وكيف أخرجه الله من بطن الحوت، غير أنه يقصها بأسلوبه الشعري الرصين، فيقول[44]:

فقلـــــت لهـــــا مـــــا باحتيـــــال ولا يـــــد خرجـــــت مـــــن الغمّـــــى ولا بالعجائـــــل

ولكـــــن ربّـــــي ربّ يـــــونس إذا دعـــــا مـــــن الحـــــوت فـــــي مـــــوج مـــــن البحـــــر ســـــائل

دعـــــا ربّـــــه والله أرحـــــم مـــــن دعـــــا وأدنـــــاه مـــــن داعِ دعـــــا متضـــــائل

فواضح أن الفرزدق يركز في اقتباسه لقصة يونس على قضية الدعاء المقبول الذي ينجي به الله من دعاه. وهذا من أسرار التوظيف القصصي للقرآن الكريم في شعر الفرزدق، والذي يوحي بأن القرآن مصدر للشعراء في كل زمان.

2. جرير:

للقرآن الكريم أثر جلي في شعر جرير، سواء في المعنى أم في العبارات والألفاظ، ومن أمثلة قوله في هجاء "عباد الجحافي"[45]:

لمّـــا أضـــلَّهم الشـــيطان قـــال لهـــم أخلفـــتم عنـــد أمـــر الله ميعـــادي

ويقتبس جرير من قصة يوسف عليه السلام، مشهد دخول إخوته عليه، بعدما أصبح وزيرا، ليمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك، فقال[46]:

ونـــوا كيوســـف لمـــا جـــاء إخوتـــه واســـتعرفوا قـــال: مـــا فقـــي اليـــوم تثريـــب

الله فضـــــــــــله والله وفقـــــــــــه توفيـــــق يوســـف إذ وصـــاه يعقـــوب

هو بهذا الاقتباس يشير إلى قوله تعالى: "قال لا تثريب عليكم اليوم" (سورة يوسف، الآية 92). وهنا يمكن أن نبدي ملاحظة غاية في الأهمية، وهي أن أثر القرآن في النصوص الشعرية الأموية أثر فني أكثر منه روحي، كما رأيناه في شعر صدر الإسلام، وبالتحديد في مدرسة حسان وزملاؤه. وهو لا شك اقتباس له غاياته السياسية، ومواقفه الداعية إليه. فمقام "أيوب" بن سليمان مقام ملك وإمارة، وهو يقارب مقام يوسف في الملك أيضا، وهذا ما يزيد مدح الشاعر للأمير رفعة وقدرا.

❖ **أثر القرآن في الشعر العباسي:**

1. شعر المتنبي:

ينهل المتنبي من القرآن الكريم ما يزين به شعره، ويجعله يرتقي في درجات البلاغة والبيان، وقد انعكست ملامح تأثره بأسلوب القرآن ومعانيه في شعره، وبخاصة في غرض المدح، فيأخذ المعنى المستحب، ليضيفه على ممدوحه، فمن ذلك، قوله في مدح "محمد بن عبيد الله الله العلوي"، فيصفه بالسرعة في العطاء، وتجنب المن بعده، فيقول[47]:

لـــــــه أيـــــــاد إلـــــــيّ ســـــــابقة أعـــــــدّ منهـــــــا ولا أعـــــــدّدها

يعطـــــي فـــــلا مطلـــــه يكـــــدّرها بهـــــا ولا منّـــــه ينكّـــــدها

خيـــــر قـــــريش أبـــــا وأمجـــــدها ثرهـــــا نـــــائلا وأجودهـــــا

وهذه من الصفات الواجب توفرها في الأمير، حتى يكون جوده خالصا من كل ما يشينه، فالمنّة تهدم الصدقة أو المعروف. وهذه المعاني –لا شك- مستوحاة من قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى" (سورة البقرة، الآية: 264).

ومن الاقتباس ما جاء في قوله[48]:

ومـــا ذاك بخـــلا بـــالنفوس علـــى لاقنـــا ولكـــنّ صـــدم الشّـــر بالشّـــر أحـــزم

فهذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم بطريقة غير مباشرة من قوله تعالى: "وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله" (سورة الشورى، الآية 40).

وكذلك في قوله[49]:

مخضـــــبة والقـــــوم صـــــرعى كأنهـــــا وإن لـــــم يكونـــــوا ســـــاجدين مســـــاجد

في البيت اقتباس من القرآن، وتأثر واضح بأسلوبه: (والقوم صرعى كأنها)، وهي مأخوذة من قوله تعالى في وصف قوم عاد وقد عذبهم بالريح العاتية: "سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية" (سورة الحاقة، الآية: 07).

ويشرح ابن جني هذا البيت بقوله: "البلاد مخضبة بدم القتلى –من الروم- فكأنها مساجد مخلقة، وهم كالسجود فيها، لا نكبا بهم على وجوههم". ومن أقواله التي يتأثر فيها بالقرآن[50]:

وإن كـــان قـــد ملـــك لقلـــوب فإنـــه ملـــك الزمـــان بأرضـــه وســـمائه

في الشطر الثاني يشير إلى قول الله تعالى: "لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير" (سورة المائدة، الآية 120). ومعنى البيت هو أن هذا المحبوب، هو الملك، يحبه الناس لجلالة قدره وعظيم منزلته، فإذا ملك القلوب فهذا لكونه قد ملك الزمان بأسره، فليس عجيبا أن يملك القلوب[51].

2. أبو تمام:

تطرح قضية تأثير القرآن في شعر أبي تمام خلافا، في مجال النقد القديم؛ حيث اختلفوا في أصل تدينه، حتى رموه بالكفر، قال الصولي: وقد ادّعى قوم عليه الكفر بل حققوه، وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر، ولا أن إيمانا يزيد فيه"[52]، مشيرا بهذا القول إلى من اتهمه من المفسرين واللغويين، كالقرطبي الذي تجاوز الحد في ذم أبي تمام والانتقاص من شعره[53]. ويرد الصولي على هذا الاتهام، بقوله: "فكيف يصح عند هؤلاء الكفر على رجل، شعره كله يشهد بضدّ ما اتهموه به"[54].

حيث يزخر شعر أبي تمام بمعطيات لغوية، ومضامين كثيرة تدل على تأثره بالقرآن الكريم، وفيما يلي أبيات شعرية تدل على أن القرآن الكريم منبع يستقي منه ما يخدم المواقف الشعرية. من ذلك قوله في مدح المعتصم، بعد فتح مدينة "عمورية"[55]:

رمـــــى بـــــك الله برجيهـــــا فهـــــدّمها ولـــــو رمـــــى بـــــك غيـــــر الله لـــــم يصـــــب

والمتأمل في هذا البيت يجد أن معناه مأخوذ من قول الله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" (سورة الأنفال، الآية 17)، وهذا يدل على أن عقيدته في الله قوية، فهو وحده تعالى من ينصر عباده المؤمنين على أعدائهم. والمعنى هنا أن الخليفة المعتصم كان قتاله للكفار جهادا في سبيل الله، ولولا ذلك لما نصره الله عليهم.

ويطلب أبو تمام من "مالك بن طوق" التغلبي أن يعفو ويصفح عن أبناء قومه، وأن يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول[56]:

لـــــك فـــي رســـــول الله أعظـــم أســـــوة وأجلّهـــــــا فـــــي ســـــــنّة وكتـــــــاب

أعطـــــى المؤلفـــــة القلـــــوب رضـــــاهم كمـــــــــلا وردّ أخايـــــــــذ الأحـــــــــزاب

حيث أخذ الشطر الأول من البيت: "لك في رسول الله أعظم أسوة"، بلفظه ومعناه، من قوله تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" (سورة الأحزاب، الآية: 21). أما في البيت الثاني فتأثر بقول الله تعالى في سورة التوبة: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلبهم" (الآية: 60).

ويشرح التبريزي قوله: (المؤلفة القلوب)، بقوله: "الذين ذكروا في آية الصدقة، وهم قوم دخلوا في الإسلام رغبة في الغنائم والعطاء، فنهم جماعة من قريش، وجماعة من غيرهم"[57]، ويعلق الدكتور شوقي ضيف على هذين البيتين بقوله: "وهو يشير –يعني أبا تمام- إلى ما حدث بعد موقعة حنين من تألف الرسول قلوب جماعة من قريش وغيرهم بما أعطاهم من الغنائم، وأنه ردّ إليهم ما سبق أن أخذه في بعض حروبه منهم"[58].

ومن الأبيات التي توضح تأثر أبي تمام بالمعاني الإسلامية، ما ورد من حديثه عن شكر النعم للمحافظة عليها، يقول[59]:

نعـــــم إذا رعيـــــت بشـــــكر لـــــم تـــــزل نعمـــــا وإن لـــــم تـــــرع فهـــــي مصـــــائب

وهذا المعنى موجود في قول الله تعالى: "إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (34) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر" (سورة القمر، الآية 34-35).

ويستمد أبو تمام من قصص القرآن، فيقول[60]:

كـــــأنّ بـــــلاد الـــــرّوم عنّـــــت بصـــــيحة فضـــــمت حشـــــاها أو رغـــــا وســـــطها السّـــــقب

حيث استمد هذه الصورة الفنية من قصة ناقة صالح عليه السلام التي ذبحها أشقى ثمود، فحل بهم عذاب الله، قال تعالى: "وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين" (سورة هود، الآية 67).

ويشرح التبريزي هذا المعنى بقوله: (السقب: ولد الناقة التي عقرها ثمود فصارت شؤما عليهم، ولما رغا السقب: أهلكهم الله، فكأن بلاد الروك كذلك)[61].

وقد يأخذ المعجم القرآن لفظا كما في قوله[62]:

كـــــأنهم معاشـــــر أهلكـــــوا مـــــن بقايـــــا قـــــوم عـــــاد أو ثمـــــود

فقد صور هلاك "الخرّمية" على أيدي الثغرى وأصحابه، وكأنهم قوم عاد وثمود لما عاقبهم الله بعذابه، وقد تأثر بقول الله تعالى: "وأنه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقى" (سورة النجم، الآية 50-51). وقوله تعالى: "فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية" (سورة الحاقة، الآية: 05). والخرمية حركة باطنية قادها "بابك الخرمي" أيام هارون الرشيد.

3. البحتري:

للقرآن الكريم حضور بارز في شعر البحتري، مما يدل على تأثره بلغة القرآن، ومعانيه، وصوره. من ذلك قوله[63]:

نحـــــن أبنـــــاء يعـــــرب أعـــــرب النـــــا س لســـــانا وأنضـــــر النـــــاس عـــــودا

وكـــــأن الإلـــــه قـــــال لنـــــا فـــــي الحـــــ رب كونـــــوا "حجـــــارة أو حديـــــدا"

فقوله: "كونوا حجارة أو حديدا"، مأخوذ من قوله تعالى في سورة الإسراء: "قل كونوا حجارة أو حديدا، أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا، قل الذي فطركم أول مرة". (سورة الإسراء، الآية 50-51).

ومن القصائد التي ظهر فيها تأثر البحتري بالقرآن الكريم، قصيدته التي مدح بها الخليفة المتوكل عند خروجه لصلاة عيد الفطر سنة 235 هـ حيث يقول[64]:

بِـــــالبِرّ صُـــــمْتَ، وأنـــــتَ أفضَـــــلُ صَـــــائِمٌ بسُـــــــــنّةِ الله الرّضِـــــــــيّةِ تُفْطِـــــــــرُ

فَـــــانْعَمْ بِيَـــــوْمِ الفِطْـــــرِ عَيْنـــــاً، إنّـــــهُ وَمٌ أغَـــــرُّ مِـــــنَ الزّمَـــــانِ مُشَـــــهَّرُ

أظهَـــــرْتَ عِـــــزّ المِلْـــــكِ فيـــــهِ بجَحْفَـــــلٍ جِـــــبٍ يُحَـــــاطُ الـــــدّينُ فيـــــهِ ويُنصَـــــرُ

فالخَيْـــلُ تَصْـــهَلُ، والفَـــوَارِسُ تـــدَّعي لبِـــيضُ تَلمَـــعُ، والأسِـــنّةُ تَزْهَـــرُ

والأرْضُ خَاشِـــعَةٌ تَمِيـــدُ بِثِقْلِهَـــا لجَـــوُّ مُعتَكِـــرُ الجَوَانِـــبِ، أغْبَـــرُ

حتّـــى طَلَعـــتَ بضَـــوْءِ وَجهِـــكَ فانجلـــتْ ذاك الـــدّجى وانجـــابَ ذاكَ العِثْيَـــرُ

حيث يؤكد البحتري هنا على أن المتوكل صام وأفطر على سنة الله ورسوله، وقد أخذ هذه المعاني من قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على اللذين من قبلكم" (سورة البقرة، الآية: 183). ويمدحه بالقوة والعزة والحفاظ على الدين بقوة الخيل والسيوف والفوارس، ويدعوا له بالنصر على أعدائه، وهذه المعاني مستقاة من قول الله تعالى: "وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" (سورة الأنفال، الآية: 60).

وقال يمدح الخليفة المنتصر[65]:

ســـرَوْا مـــرجفين لسَـــعيِ الصّـــفَا ورَمْـــيِ الجِمَـــارِ، وَمَســـحِ الحجَـــرْ

حَجَجْنـــا البَنِيّـــةَ شُـــكْراً لِمَـــا حبانَـــا بـــهِ الله فـــي المُنتَصِـــرْ

مـــن الحِلـــمِ عنـــدَ انتِقَـــاضِ الحُلُـــو م والحـــزم عنـــد انتقـــاضِ المِـــرَرْ

رَدَدْتَ المَظـــالِمَ، واســـتَرجعَتْ يَـــداكَ الحُقُـــوقَ لِمَـــنْ قَـــد قُهِـــرْ

وآلُ أبـــي طالِـــبٍ بَعْـــدَ مَـــا أُذِيـــع بِسِـــرْبِهِم فابْـــذَعَرّ

وَنَالَـــتْ أدانِـــيهِمُ جَفْـــوَةٌ تَكَـــادُ السَّـــمَاءُ لهَـــا تَنْفَطِـــر

وَصَـــلْتَ شـــوابكَ أرحـــامِهِم وقـــد أوشَـــكَ الحَبـــلُ أن يَنبَتـــرْ

نلاحظ ان الشاعر يوظف مفردات المعجم الإسلامي، كالسعي بين الصفا والمرة، ورمي الجمرات، والمسح على الحجر الأسود. وقد أخذ هذه المعاني والألفاظ من قول الله تعالى: "إن الصفا والمروة من شعائر الله)

(سورة البقرة، الآية: 158). ويشير في البيت السادس من قوله تعالى: "تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا" (سورة مريم، الآية: 90).

من خلال هذه النماذج الشعرية يتضح ان البحتري متأثر بالقرآن الكريم في شعره، حيث برز هذا التأثر في مجموعة من الأغراض، على رأسها غرض المدح الذي اختص به خلفاء بني العباس كالمتوكل، والمنتصر، وغيرهم. وفيه يوظف مفردات المعجم الإسلامي، سواء أكان ذلك من القرآن أم من الحديث النبوي الشريف. فثقافة البحتري مبنية على القرآن والإسلام، يحسن الاقتباس من القرآن، لفظا ومعنى، ويستوحي منه المعاني والأفكار، التي تدل على عمق إيمانه، وافتخاره بالإسلام، والقيم الإيمانية.

هذه بعض النماذج الشعرية التي حاولت من خلالها أن أتبين أثر القرآن في الشعر العباسي، متخذا شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري مجموعة من الأبيات الشعرية التي تدل على ان الشاعر استقى من القرآن الكريم مادته في تشكيل الصور والعبارات، حتى بلغ ذرة السنام في الفصاحة والبلاغة والبيان. والقارئ لشعره يجد فيه حضورا مكثفا للمعجم الإسلامي سواء من القرآن أم من الحديث النبوي أم التاريخ الإسلامي، فظهر كل هذا جليا في مستوى اللغة والتركيب والصورة الفنية.

❖ **الهوامش والإحالات:**

(1)- محمد عبد المنعم خفاجي، وآخرون: الأدب الإسلامي المفهوم والقضية، (ط1)، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992، ص72.

(2)- سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، (د. ط)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص35.

(3)- ينظر، يحي الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ط1، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، العراق، 1964، ص35.

(4)- يحي الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ط1، ص 40.

(5)- سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، ص222.

(6)- المرجع نفسه، ص222.

(7)- الفضل بن العباس: ديوان الفضل بن العباس اللهبي، تح. مهدي عبد الحسين النجم، (ط1)، مؤسسة المواهب، بيروت، لبنان، 1999، 37.

(8)- الحطيئة: ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، محمد مفيد قميحة، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993، ص79.

(9)- ابن عبد ربه الأندلسي: "العقد الفريد"، تح عبد الحميد الترحيني، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، 3، ص254.

(10)- الحسن البوسي: "زهر الأكم في الأمثال والحكم"، تح محمد حجي ومحمد الأخضر، (ط1)، دار الثقافة المغرب، 1981، ج3، ص112.

(11)- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تح عبد الأمير مهنا، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1992، ج4، ص102.

(12)- ابن مقبل: ديوان ابن مقبل، تح عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1995، ص38.

(13)- سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، ص223.

[14]- القاضي عبد العزيز الجرجاني: "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد علي البجاوي، (ط1)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2006، ص25.

[15]- القاضي الجرجاني: الوساطة، ص25.

[16]- المصدر نفسه، ص25.

[17]- القاضي الجرجاني: الوساطة، ص25.

[18]- يحي الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص213.

[19]- المرجع نفسه، ص213.

[20]- ينظر، الأصفهاني: الأغاني، تح إحسان عباس وآخرون، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2005، المجلد 14، ص192.

[21]- المصدر نفسه، المجلد 14، ص192.

[22]- الأصفهاني: الأغاني، ج14، ص ص192-193.

[23]- المصدر نفسه، ج14، ص 193-194.

[24]- محمد أبو ربيع: في تاريخ الأدب العربي القديم، (د. ط)، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1990، ص73.

[25]- المرجع نفسه، ص 73.

[26]- عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، (د. ط)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1987، ص14.

[27]- المرجع نفسه، ص 14.

[28]- كعب بن زهير: ديوان كعب بن زهير، صنعة الإمام أبي سعيد السكري، شرح ودراسة، د. مفيد قميحة، (ط1)، دار الشواف للطباعة والنشر، السعودية، الرياض، 1989، ص109.

[29]- محمد أبو ربيع: في تاريخ الأدب العربي القديم، ص77.

[30]- عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، ص19.

[31]- ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، ج1، ص274.

[32]- المصدر نفسه، ج1، ص274..

[33]- الأصفهاني: الأغاني، ج15، ص252.

[34]- يحي الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص233.

[35]- ابن قتيبة: "الشعر والشعراء"، ج2، ص252.

[36]- المصدر نفسه، ج2، ص252.

[37]- يحي الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص235.

[38]- لبي بن ربيعة العامري: تح، د. إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962، ص174.

[39]- النابغة الجعدي: ديوان النابغة الجعدي، تح. د. واضح الضّمد، "ط1"، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص07.

[40]- المصدر نفسه، ص146.

[41]- سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، ص173.

[42]- المرجع نفسه، ص173.

[43]- الفرزدق: ديوان الفرزدق، شرح –علي فاعور، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987، ص540.

[44]- الفرزدق: ديوان الفرزدق، ص476.

[45]- جرير: ديوان جرير، (د. ط)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص121.

(46)- المصدر نفسه، ص35.

(47)- أبو البقاء العكبري: التبيان في شرح الديوان، تح- مصطفى السقا، وآخرون، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1925، ج1، ص304.

(48)- المرجع نفسه، ج1، ص360.

(49)- المرجع نفسه، ج1، ص275.

(50)- المرجع نفسه، ج1، ص03.

(51)- أبو البقاء العبكري: التبيان في شرح الديوان، ج1، ص03.

(52)- أبو بكر الصولي: "أخبار أبي تمام، تح مجموعة من الأساتذة، خليل محمود عساكر وآخرون، تح أحمد أمين، (ط3)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1980، ص172.

(53)- محمد علي أبو حمده: النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع الهجري، (ط1)، مكتبة الجامع الحسيني، عمان، الأردن، 1969، ص39.

(54)- الصولي: المصدر السابق، ص173.

(55)- أبو تمام: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح محمد عبده عزّام، (ط5)، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د. ت)، م1، ص59.

(56)- المصدر نفسه، م1، ص85.

(57)- المصدر نفسه، ج1، ص85.

(58)- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، (ط11)، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1960، ص222.

(59)- أبو تمام: ديوان أبي تمام، ج1، ص175.

(60)- المصدر نفسه، ج1، ص 189.

(61)- المصدر نفسه، ج1، ص189.

(62)- المصدر نفسه، ج2، ص38.

(63)- البحتري: ديوان البحتري، تح. حسن كامل الصيرفي، (ط1)، دار المعارف بمصر، 1963، ج1، ص596.

(64)- المصدر نفسه، ج2، ص 1070.

(65)- المصدر نفسه، ج2، ص849.